من العصور الوسطى
إلى
عصر الإحياء

فى الفصل التالى يبدأ هذا الكتاب بالشاعر پترارك ، صاحب بوكاتشيو مؤلف قصص «الديكاميرون» ، ولدا فى تاريخين متقاربين (١٣١٣ و ١٣٠٤) ، وختم دانتى البچيرى حياته عام ١٣٢١ منفيًّا فى رافنّا ، بعيدًا عن فلورنسا مسقط رأسه . دانتى حبيب المرحوم الدكتور حَسَن عثمان الذى قضى عمره الناضج فى دراسة «دانتى ، الروعة المتفردة فى الجنس الإيطالى» ، كما دعاه بوكاتشيو فى السيرة التى دبجها لكبير شعراء إيطاليا .

نعم ، قضى حَسَن عثمان نُضجه فى دراسة فن دانتى ، ومركزه فى الأدب الإيطالى والأدب العالمى . وقام بترجمة «الكوميديا الإلهية» نثراً ، بأجزائها الثلاثة : «الجحيم» و«المطهر» ، و«الفردوس» . وكانت الترجمة هدية غالية إلى المكتبة العربية ، اتصلت بالحركة الأدبية فى مطالع هذا القرن ، حين ترجم سليمان البستانى إلياذة هوميروس شعرًا (١٩٠٤) وقدم لها بمقدمة حافلة ، فكرمته البلاد العربية فى المشرق (ولد فى لبنان عام ١٨٥٦ ، وتوفى فى أمريكا

١٩٢٥) . كان يمثل بلاده فى مجلس المبعوثان ، وأقام فى سويسرا فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبعد انتهائها قدم إلى مصر ، فى صيف ١٩٢٠ وكنت طالبًا بمدرسة الطب بقصر العينى حظيت بأن نبهنى صديق إلى وجوده فى كازينو سان ستيفانو ، وكان صباح أحد فقصده حين كان عدد أعضاء أوركسترا الفندق يرتفع بقيادة بونومى ليقدم حفلاً سمفونيًّا .

وأنا فى أوائل مراهقتى من المعجبين جدًّا بعمل البستانى (ترجمته ومقدمته) ، ومن القلائل الذين قبلوا ترجمته شعرًا . ولكنى أفضل اليوم فى هذه الأعمال الشعرية الكبرى الدقة والسهولة فى الترجمة النثرية . كنت طالباً فى السنة الرابعة الثانوية (١٩١٦ – ١٩١٧) ، وكانت قراءتى لهذه الترجمة بدار الكتب السلطانية (والمصرية فيما بعد) ، إتمامًا لقراءتى درامات إسكيلوس ، وسوفوكليس وأوريبيدس ، والإلياذة ترجمة الشاعر الكسندر پوپ .

كانت جلستى عام ١٩٢٠ مع بعض أولاد الذوات ، على مقربة من مترجم الإلياذة ، سعيدًا بمشاهدة شيخ جليل ، يلبس الطربوش ، ويتكئ على شمسيته ، ولعلى أذكر أن واحدة من عوينات نظارته كان زجاجها معطلاً ببياض خفيف .

أما الدكتور حَسَن عثمان فكان من أقرب الناس إلى إعجابى وحبى ، على قلة فرص لقائنا ، والأغلب فى مكتب عملى . وكانت طبيعته انطوائية لا يهتم إلا بعمله الكبير . وحسنًا صنع فإن تكريمه فى

بلاده لم يرتفع عالياً ، وعوضه الله خيرًا ومجدًا إذ تبوأ مكانًا عليًّا بين أقطاب الدراسات الدانتيتكية فى العالم .

فى ذلك الزمان البعيد كنت أحسب دانتى وپترارك وبوكاتشيو من رجال عصر «الرينسانس» وتنورت فيما بعد ، فهم من أهل العصر الوسيط ، الذى تغشاه الكآبة تحت سيطرة الفقهاء ، يحضون الناس على احتواء الحياة الدنيا ، وأن يعملوا حسابًا ليوم الحساب ، وكأنى بهم وقد اكتفوا بنصف الحكمة السامية : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» .

كانت العصور الوسطى فى أوربا ، تواجه فى نَفْسى عصر «الإحياء والنهضة» فيما نصف به «الرينسانس» ، متفتح النوافذ ، وضاء الجبين ، يسعد فيه الإنسان بالانطلاق والحرية . بل كان من القوة والفعالية فى زمانه وفى كل زمان تلاه ، إن اعتبر فاتحة الحضارة الحديثة .

وشيخوختى فى اعتدالها لا تتجاهل العصر الوسيط ، أو تمتهن فكر أهله ، وقد عارض المؤرخون المحدثون فى وصف الحقبة السابقة على الرينسانس «بعصر الظلام» فلقد تغذى أهله بالأدب اللاتينى ، ومن الحق أن نقول بأن الراهبات فى إبانه كنّ يقرأن شعر «أوڤيد» مهذباً .

وكان «أبيلار» واحدًا من فلاسفة العصر الوسيط ، أى الإسكولائيين ، قد حاول التَّخَلُّصَ من تزمت الفقهاء ، فلم يفلح ،

وكان التابعون لفلسفة ابن رشد فى عقلانيتها متهمين بالهرطقة .

أما العلميون فلم يكونوا على بصيرة تامة بما تدارسوه فى ترجمات لاتينية قام بها علماء اليهود لنصوص الفلسفة اليونانية ، وتعليق الشراح المسلمين ، وهوامشهم عليها . وحاولت « الفيزيقا » الحياة فى خلية الراهب روجربيكون ، فاضطهده أقرانه ، لأنه يزعم امتلاك كمٍّ من المعارف والعلوم بما لا يتفق وتواضع الإنسان ، وبخاصة تواضع الرهبان (كذا ! !) وقصارى الأمر ، كان أهل القرون الوسطى مستغرقين فى شئون الآخرة تحت سيطرة شيوخهم .

والشاعر پترارك أول من ابتدع وسيلة جديدة فى طريق المعرفة ، هى التى فتحت باب « الهيومانية » . فى تعاليم پترارك بدء اكتشاف الإنسان والعالم . والهيومانية هى التقدير الصحيح لكرامة الإنسان فى أنه مخلوق عاقل ذو إرادة ، وإحساس . وجد على الأرض ليستخدمها ويتمتع بخيراتها .

نما عقل الإيطاليين فى ذلك الزمان بالنسبة لبقية الأوربيين ، نَبههم پترارك إلى دراسة أدب اللاتين ، وإلى أهمية الاعتناء والإقبال على آداب الإغريق .

وتابع بوكاتشيو تلك الدعوة بنثره الملىء بخفة الروح ، ولطف الدعابة ، وموهبة القصّاص . كما عاد إلى فلورنسا رهط من أهلها بعد زيارة بيزنطة ، قبل سقوطها فى أيدى العثمانيين . فشجعوا على

الاهتمام بحضارة أهل اليونان . وعادوا بما جمعوه من مخطوطات قدماء الإغريق .

وجاء فى نبوءة رئيس دير : «مضى حكم الآب ، وينقضى فى عصرنا حكم الابن . أما حكم الروح ، فهو على وشك الظهور» . كلام رأى فيه بعض الناس بشيرًا بعصر الإحياء أو عودة الروح .

كان الإمبراطور فريديريك الثانى من أسرة الهوهنشتاوفن ، ومن أتباع الحضارة العربية يشجع الثقافة اللبرالية ، ويحكم بتعديل نظام المجتمع على أساس علمانى ، وكأنه بهذا قدم صورة مسبقة لعصر الرينسانس .

ولكن جهوده فى هذا السبيل ضاعت سدى أمام موقف العداء الذى اتخذه الإكليروس ضد الإمبراطور ، وإذا لم تخنّى الذاكرة ، فإن فريديريك فون هوهنشتاوفن ، كان العاهل الصليبى الذى عقد صلحًا مشهورًا مع صلاح الدين الأيوبى ، فى الأراضى المقدسة . وكان تعليق البابا على هذا السلوك : «المنتظر من الصليبى أن يحارب ، لا أن يعقد صلحًا غير وارد» .

واضطر فريديريك فيما بعد إلى التسليم ، ولم ينفعه ذلك . فقد وضعه الشاعر دانتى فى قرار الجحيم . .

ودانتى فى «الكوميديا الإلهية» – جوهرة الأدب الإيطالى – جاء موضوعها من صميم التعاليم والكتب الدينية ، و«الفردوس» فيها

ملئ بالرموز الباطنية . ومع ذلك اختار كبير شعراء اللاتين ، فرجيل الوثنى ليكون دليله فى مسيرة الجحيم .

وآخر تلك النوافذ المتفتحة فى العصر الوسيط على عصر النهضة كشفه السر المغلق فى دير «بويرون» من أعمال باڤاريا . ولم يعرف السر . إلا فى القرن التاسع عشر ، عندما اكتشفت أشعار لشباب الرهبان ، بعنوان «كارمينا بورانا» (أغانى بويرون) ، وجلها خمريات وغراميات شباب عابث ، فرّج عن نفسه ، ومتّع شبابه ، بارتياد ألحان ، ندوة الشيطان .

استخدم المؤرخ البريطانى سيموندز (فى نهايات القرن الماضى ومطالع الحاضر) مصطلح «إحياء العلوم والمعارف» ، ليقول بأن هذا «الإحياء» فى خواتيم العصور الوسطى ، كان إرهاصًا ثم رسمًا لمسار الرينسانس . فالعنصر الفعال فى إحياء العلوم والمعارف ، هو «الهيومانية» .

«الهيومانى» فى القرن الخامس عشر كان يملك ، أو يطلع على المخطوطات الثمينة ، ويحاضر عن أفلاطون ، أو هوميروس ، بقراءة النص ، ثم يشرحه ويعلق عليه ، فتكشف قريحته وصوته عن أسرار القدماء . فكان الرجال والنساء من كل الطبقات يتزاحمون على الاستماع لمحاضراته ، يعجبون بمعارفه وفصاحته ، ويعيشون بهدى كلامه ، وليس من المتوقع فى هذه الظروف أن تنشأ عنها ثقافة أكاديمية .

وعلى الرغم من تلك الوسائل السطحية ، فقد أدت إلى اكتشاف جمال العالم القديم ، عالم الكلاسيكيات اللاتينية ، وبعد ذلك الآداب والفكر اليونانى .

عرفت أوربا الغربية أفلاطون ، كما أضافت الكثير إلى معلوماتها عن النصوص الكلاسيكية . وبدأ التفكير فيما تربى عليه الأجيال القادمة . وتميزت مدرسة المؤرخين ، والكتاب فى فلورنسا بوعى جديد لتواصل التاريخ بين الماضى والحاضر ، مع النظرة المتوقعة للمستقبل .

ومن خصائص العصر الجديد الكلف بالمجد الشخصى ، الأثرياء والحكام يطالبون الفنانين بتصويرهم ، أو نحت تماثيل لهم ، تخليدًا لذكراهم . والفنانون يقدرون بأن فى هذا تخليدًا لأعمالهم .

تمتعت فلورنسا ، هى وجيرانها بالسلام مدى أربعين عامًا ، ومن سنة ١٤٥٤ حتى غزو الفرنسيين لإيطاليا ، فى حكم وقيادة الملك شارل الثامن . وكانت حركة الهيومانية تستجمع قوة دفعها ، حتى بلغت سرعة باهرة . فعندما كان لورنزو المديتشى ، الموصوف بالأفخم ، يتولى إمارة فلورنسا ، تقدم الأدب والفن بخُطى واسعة . وليتصور القارئ أن تجتمع لتلك الإمارة – وهى ذاتها التى اشتهرت بدانتى وپترارك وبوكاتشيو وميكلانجلو المصور والنحات ، ودوناتلّو ، أعظم النحاتين الباكرين ، وأسماء المصورين : الراهب فيليپوليبى ، وساندروبوتشلىّ . وتضاف إلى القائمة أسماء : ماكيافلّى الكاتب

السياسى وجيتشارديني المؤرخ ، وفتشينو حامل لواء الأفلاطونية ، والشاعر بوليتسيانو ، أفصح الفصحاء فى اللاتينية ، ولوقا ديلاّ روبيا النحات ، وجيرلاندايو المصور . وكل هؤلاء أبناء فلورنسا ، ومعهم زملاؤهم من خارجها ويعملون فيها : فيروكيو النحات ، وبيروجينو ، وليوناردو دافنتشي المصوران . وكانت عبقرية الأمير لورنزو الأفخم ، تجمع بين الشعر والموسيقى ، والحنكة السياسية . ولنا أن نفهم ونتخيل كيف كانت فلورنسا فى ذلك الزمان عاصمة أوربا ، فى الفن والثقافة . .

أما العمارة ، فتركزت مطالعها فى روما ، ثم انتشرت منها فى الدويلات الإيطالية . وما إنْ حل القرن السادس عشر حتى قامت قصورها على ضفاف نهر اللّوار ، بفرنسا ، وفى إنجلترا وفى أسبانيا ، وفى ألمانيا .

انتهى عصر عمارة القلاع ، ومساكن تتحشر داخل أسوار عالية . وقامت بدلها القصور الفسيحة ، لإمتاع ساكنيها ، اتسعت حولها مساحات الأرض الخضراء ، حدائق غناء .

انخفض فى عهد «الإحياء والنهضة» نفوذ الإكليروس ، لا يرهبون رعاياهم بأن إرادة المرء وذكاءه ، تودى بهم حتمًا إلى الخطيئة .

وظهرت الممكنات المخبوءة فى طبيعة الإنسان ، وانطلقت

مواهب الرجال والنساء حرة فى كل مجال ، شاعرين بقوتهم ، الفرد صانع قَدَرِه بذاته ، حر فى عقله وروحه تحكمه كلمة «الڤيرتو» التى جرى العرف الحديث على ترجمتها «بالفضيلة» . إنما فى ذلك العصر كانت تعنى الرجولة الحقة . صاحب «الڤيرتو» هو العارف بما يصنع من داخل ذاته ، فى الفن ، فى الأدب ، فى السياسة . يُحْسِنُ استخدام ما يتاح له من فرص .

والهيومانيون الإيطاليون كانوا أول الأوربيين فى صفاتهم العلمانية ، اكتسبوها من الأدب ، والتاريخ الكلاسيكى . كما أكسبتهم الفصاحة ، وحسن البيان ، والقوام الإنشائى مع أناقة التعبير .

تحرك الرينسانس على أيدى النخبة ، وهذه لا تعنى الطبقة العليا وحدها . فالأرستوقراطية تراعى المحتد ، والميلاد ، والبيئة الخاصة . وإيطاليو عصر الإحياء ، لم يعنوا بهذه الأمور . وعلى عكس ما يتصور ، العصر هو الذى اخترع «الجنتلمان» ، ويظهر ذلك جليًّا من قراءة المؤلف المشهور باسم «كتاب رجل البلاط» (الكورتجيانو) ، تأليف كاستليونى . تكفى قراءته إمعانًا ليتبين القارئ كيف كانت النخبة فى مجتمع النهضة ، تحرص على المعرفة الموسعة لشتى الشئون والأمور . ولم يكن العلمانيون أقل منزلة من الإكليروس ، ولا من الفرسان ، كما كان الحال فى العصور الوسطى .